عم فتحي

أحمد جمال الدين رمضان

زرنا صديقنا فتحى فى مكتبه لتهنئته بمنصبه الجديد .. لم يتغير مكتبه القديم رغم الترقية .. رحب بنا بحرارة و قضينا بضع دقائق نتبادل الحديث فى عدة موضوعات مختلفة قبل أن يتناهى إلى سمعى صوت طرقات على الباب .. يبدو أن صاحبى لم ينتبه له لأنه واصل الكلام .. بعدها بثوان عاد الطرق مرة أخرى .. لأول مرة أدرك أن صديقى ثقيل السمع .. ألتفت إليه لألفت نظره أن هناك أحد بالباب ربما يستأذن فى الدخول .. لوح بذراعيه بلا مبالاة و لم يعلق .. و لكن عندما قطع حديثنا للمرة الثالثة صوت تلك الطرقات الخفيفة نهضت و فتحت الباب لأتفاجئ بعدم وجود أحد .. الردهة الطويلة أمام المكتب خالية تماماً .. أخرج صديقى علبة سجائرة و أشعل واحدة بهدوء ثم أسترخى فى مقعده .. سألته بتعجب و أنا أشير إلى الطرقة الخالية :

- أين ذهب الطارق ؟

أجابنى بلا أكتراث : دعك منه .. ربما فتحى الفراش .. تلك طرقته المميزة

لم يفوت صديقنا الفرصة .. سأله مازحاً : و هل أعتاد أن يطرق الباب ثم يهرب كالأطفال ؟

- ربما أصابه الملل فأنصرف .. أو ربما غضب قليلاً لأنى أتجاهله كالعادة .. لا تقلق سيعود لاحقاً .. و لن أفتح له

سألته بتعجب : إذن تتجاهله عمداً .. لماذا .. ؟

قال دون أهتمام : لهذه قصة طويلة

أثارت كلماته فضولى ، قلت مازحاً : يبدو أن بالموضوع سراً ما تحاول جاهداً أن تخفيه

ضحك صديقى قائلاً : لا يوجد أسرار .. و لكنى لا أريد تضييع وقتكما سدى فى قصة لا تستحق

أجبته و أنا أعاود الجلوس على مقعدى : طالما ليس بالموضوع سراً فأحكى إذن .. على الأقل نعرف لما طرق الباب و هرب

سكت قليلاً ، ثم قال بأستسلام بعد برهه : حسناً .. و لكنى حذرتكما أنها حكاية مملة لا تستحق

أطفأ سيجارته ثم قال :

عم فتحى أقدم عامل هنا .. أستلم عمله من أول يوم أنشأنا فيه المجلة .. الجندى المجهول هنا كما يقولون .. نشيط دائماً لا يركن للراحة و لا يستقر فى مكان .. لم يكن فراشاً فقط .. بل أيضاً عامل النظافة و حارس الأمن و سكرتير أحياناً .. مجلتنا فى بداية عهدها لم تكن مشهورة و ميزانياتها محدودة للغاية و لهذا قام بكل تلك الوظائف راضياً .. أعتاد أن يأتى فى الصباح مبكراً قبل أى أحد .. ينظف المكاتب ثم يتوجه إلى المطبخ .. بمجرد أن يضع الماء ليغلى حتى يتوافد المحررين .. يعد المشروبات طوال اليوم .. يستقبل أحياناً الزوار و يدلهم على المكاتب .. يصلح أى شئ مكسور .. و يرد على التليفونات عندما تكون السكرتيرة الوحيدة لدينا مشغولة أو متأخرة كعادتها .. هو أول من وقعت عيناى عليه عندما جئت إلى هنا .. مجرد محرر مبتدئ وقتها .. كنا نحسده على ذاكرته القوية .. لا ينسى شيئاً .. يحفظ عادات

كل شخص .. فى الثامنة صباحاً يحضر لى قهوتى المعتادة .. وبعدها بساعتان تماماً يحضر كوب القهوة الثانى دون أن أطلب منه بعد أن عرف عاداتى .. مواعيده دقيقة تستطيع أن تضبط ساعتك عليها .. بمرور الوقت بدأت المجلة تنتشر تدريجياً و يزداد عدد المحررين فأكتفى بعمل الفراش بعد أن أحضرنا عاملة نظافة تساعده بعد الظهر

أتذكر أول مرة خرجت فيها المجلة للنور .. أعطيته نسخة من أول عدد نصدره فظل يحتفظ بها بحرص داخل درج خاص فى المطبخ .. و رغم أنه لا يقرأ لكنه ظل يتطلع للصور بشغف .. يخرج المجلة فى أوقات فراغه و يقلب فى صفحاتها بحثاً عن الصور و يطالعها بتركيز و يسرح مع أفكاره .. بدأ يطلب نسخة من كل عدد نصدره ليطالع الصور .. لا أعلم ما سر هوايته الغريبة تلك و لكنه كان شغوفاً بها بشدة .. بعد ثلاث سنوات من عملى هنا ترقيت و أصبحت كبير المحررين .. زادت أواصر الصداقة بينى و بين عم فتحى خاصة أنه كان يسهر معى أحياناً لأنجاز أعمالى المتأخرة .. و عندما أصاب أحياناً بالأرهاق من العمل .. يجلس ليسلينى و يحكى لى قصص من حياته

ذات صباح أتذكره جيداً .. جاء يطرق على الباب كعادته .. كنت مشغولاً بكتابة مقال فلم أرفع عينى عن الأوراق .. ظل متريثاً أمامى دون أن يصدر عنه أى صوت حتى أنتهيت .. عندما رفعت عينى أبتسم بتردد .. ألقيت نظارتى و فركت عينى و أنا أسأله بهدوءعن سبب أنتظاره بهذا الشكل .. سكت قليلاً ثم أجابنى بخجل أنه يريدنى فى طلب شخصى .. توقعت أنه يرغب فى أقتراض بعض المال رغم أنه لم يفعلها من قبل .. أبتسمت لأشجعه على الكلام .. أطرق إلى الأرض .. تهدج صوته قليلاً و هو يردد :

- أريد منك معروفاً لن أنساه طوال عمرى

سكت قليلاً .. بلع ريقه بصعوبه .. تلعثم و هو يكمل بأبتسامة مرتبكة : أريدك أن تنشر صورتى فى الجريدة

تمالكت نفسى بصعوبة حتى لا أضحك .. لو رأيت تلك النظرة الطفولية على وجهه وقتها لضحكت .. ملامحه فى منتهى البراءة و الجد فى آن واحد .. سألته برفق :

- لماذا تريد أن تنشر صورتك ؟

أجاب بعدة أجابات كلها تدل على السذاجة .. أخبرنى أنه يحب الصور و يحلم أن يرى و لو صورة صغيرة له فى المجلة حتى يريها لأصدقائه ، و يحتفظ بها بعد أن يتباهى بها أمامهم .. لم أشأ أن أصدمه بصعوبة الأمر .. الطريقة الوحيدة لأنشر صورة له هو بعد عمر طويل فى صفحة الوفيات ..رأيته ينظر نحوى و هو يتطلع بلهفة لردى .. تملمت فى مقعدى .. فكرت فعلاً بجدية فى أمره .. رغم سهولة طلبه و لكن صعب أن أنشر له صورة فى أى قسم من أقسام الجريدة .. الصفحات الأولى مخصصة بالطبع للأحداث السياسية البعيد هو عنها تماماً و لا يرغب بالأقتراب منها .. صفحات المجتمع لا تهتم سوى بأخبار الفنانين و المشاهير .. أستبعدت صفحة الرياضة بالطبع فالرياضة الوحيدة التى يجيدها هى ركوب دراجته البسيطة للعمل صباحاً .. ربما فى قسم الحوادث .. و لكنه لم يرتكب أى جريمة تستحق سوى أنه دخن مرة واحدة فقط فى شبابه كما حكى لى تحت ضغط زملائه و أقلع بعدها .. لم أجد حلاً و أشفقت أن أرفض طلبه بشكل

مباشر فأؤذى مشاعره .. وعدته أن أفكر فى الموضوع .. تهلل وجهه بسعادة و أنصرف و هو يكاد يطير فرحاً

و بالطبع صدر العدد التالى من المجلة و لم تظهر صورته فيه .. جاءنى منكسراً .. أشفقت عليه .. لم أجد عذراً يمكن أن يقبله برضا دون أن أخيب أمله .. أضطررت أن أصارحه برفق و أوضح له صعوبة الموقف .. أخبرته بوضوح أنه لا بد من وجود سبب مقنع لنشر الصورة .. كأن يكون مشهوراً مثلاً .. أو صاحب قضية تهم الرأى العام .. أو حتى صاحب تجارب حياتية مميزة أستطيع نشرها ليستفيد منها القارئ .. عندما أنتهيت من كلامى معه سكت فتحى قليلاً .. فكر لثوان ثم أبتسم و هتف بتلقائية :

- أنشر قصة حياتى أذن

هذه المرة لم أتمالك نفسى فضحكت .. و يبدو أنه فسر ذلك على أنه أستحسان لفكرته .. فبدأ يتكلم عن أحداث من حياته الجوفاء و يستفيض فى رواية ما مر به .. أدركت وقتها أنه لا فائدة من محاولة

أقناعه .. جلست على المقعد بأستسلام و أسندت رأسى على يدى أستمع بصبر لحكايته التى يرويها لى للمرة العاشرة

أنتابتنى فكرة وقتها .. لما لا أكتب قصة قصيرة أستلهم أحداثها من واقع حياته و أنشرها فى قسم الأدب .. على الأقل سيفرح بنشر قصة تحكى عنه و لن يعاود التفكير فى موضوع الصورة .. بدأت أنتبه أكثر معه و هو يحكى .. و لكن لخيبة أملى لم أجد أى شئ مميز يمكننى التوقف عنده .. حياة جوفاء .. مثال حى لحياة روتينية .. أرض مسطحة لا أنحناءات فيها و لا أرتفاعات .. أبوه كان ساعى بريد بسيط و توفيت أمه و هو صغير .. لم يتعلم القراءة أو الكتابة .. عمل صبى بائع لفترة طويلة قبل أن يغلق المحل الذى يعمل فيه لوفاة صاحبه فأنتقل للعمل كنادل فى مقهى شعبى .. لم يعجبه العمل فتركه و تنقل فى عدة وظائف بسيطة قبل أن يستقر به المقام للعمل فى جريدتنا .. يقضى طوال فترة الصباح هنا و ينهى عمله مساءاً فيتوجه إلى المقهى ليقضى بعض الوقت مع شلة من جيرانه ثم يعود لمنزله المتواضع و ينام للصباح .. يسهر فقط قليلاً يوم الخميس على المقهى .. و أحياناً يزور

قريبة له مسنه تسكن فى مدينة أخرى .. تلك هى حياته تقريباً بدون أختصار .. حياة تسير على قضبان ثابتة كقضبان السكة الحديد .. لم ينحرف يوماً أو يحيد عن الطريق .. يقطع نفس المحطات يومياً .. و ينتهى دائماً عند النقطة التى بدأ منها .. كيف يمكننى أن أضع حياة كتلك فى قصة أدبية مشوقة تثير القارئ .. قصته خالية من أى أحداث مثيرة و محبطة لأى كاتب يود صياغتها

قاطعت لصديقى : و لكن فى داخل كل منا قصة تستحق النشر .. هذا ما يردده الأدباء ..

هز صديقى رأسه ثم قال : كلام نظرى لا ينطبق على الكثير و منهم عم فتحى .. ماذا أكتب عنه .. يستيقظ صباحاً و يقضى اليوم فى العمل ثم يذهب لمنزله للنوم .. حتى أحلامه لم يكن له أحلام أو طموحات كبيرة .. إلا حلمه بالطبع بنشر صورته .. لم يحلم أن يتزوج أو يكون له أولاد لضيق ذات اليد .. و طموحه لا يتعدى أن يحافظ على عمله كفراش .. ليس له مغامرات .. أو حتى مشاريع خاصة يود تنفيذها .. من سيستمتع بقراءة الأحداث كتلك ..

على العموم وعدته بأعادة النظر فى الموضوع .. قررت أن أتركه عدة أيام لعله ينسى الأمر و لكن مع مرور الأيام زاد هوسه .. عندما نشرنا العدد التالى و لم يجد صورته جاء ليعاتبنى .. لمحت نظرة أنكسار فى عينيه .. لم أره محبطاً من قبل بهذا الشكل .. و بعد صدور عدد آخر دخل المكتب يحمل القهوة بيد و بيده الأخرى يطبق على نسخة من المجلة .. بسط المجلة أمامى و أشار إلى صورتان لأثنان يبدو من هيئتهما أنهما بسطاء .. سألنى بعتاب لماذا لم أنشر صورته مثلهما فلا يبدو عليهما أنهما من المشاهير أو نجوم المجتمع .. تصفحت المجلة بهدوء .. الصورة الأولى لشخص مريض نشرنا ألتماس لوزير الصحة لعلاجه فى الخارج و معها صورته .. و الثانى تعرض للنصب فنشرنا قصته حتى نحذر الناس و بالطبع نشرنا صور المقابلة معه بعد أن تطوع بذلك .. حاولت أن اوضح له الأمر و لكن لم يبدو عليه الأقتناع .. لو كان يجيد القراءة لطلبت منه أن يقرأ المجلة ليتاكد من كلامى بدلاً من أن ينصرف و نظرة الشك تلك تظهر فى عينيه بوضوح .. و رغم مرور

الأيام و تجاهلى له لم يفقد الأمل .. و عرفت لاحقاً أنه حاول مع عدد من الصحفيين هنا .. و لكنه قوبل بالأستهزاء منهم

مرت سنوات على مجلتنا .. تعرضنا للأغلاق و المصادرة عدة مرات .. و غادر عدد كبير من المحررين و حل محلهم عدد أكبر .. أنتشرنا و توسعنا .. جددنا ديكورات المكتب و غيرنا الأثاث .. أصدرنا المجلة فى البداية شهرياً ثم أسبوعياً .. كل شئ تغير إلا ألحاح عم فتحى .. لم ييأس و ظل يذكرنى بطلبه على فترات متباعدة .. أنتظر دوماً بأمل أن أحقق رجاءه رغم تجاهلى الدائم له الذى أستمر لسنوات .. حتى تفاجئنا ذات صباح بغيابه

لأول مرة من أثنتى عشر عاماً لا يحضر .. لم يغب يوماً من قبل .. أعتاد يومياً أن يكون أول من يصل لمقر المجلة و آخر من يغادر حتى أصبح جزءاً من المكان لا تألفه أعيننا بدونه .. و عندما تواصل غيابه لليوم الثانى أرسلنا مندوباً من المجلة للسؤال عنه .. عرفنا أنه مرض فجأة .. أصيب بألتهاب رئوى حاد و نقلوه للمستشفى .. لم يكن عم فتحى بالشخص قوى البنيان و لكنه لم يمرض قط .. و كأن الطبيعة

أرادت أن تعوضه عن ضعف بنيانه بمناعة قوية ضد المرض .. و لكن مناعته أنهارت فجأة .. زاره بعض المحررين فى المستشفى و كنت أنوى مشاركتهم الزيارة و لكنى أضطررت للسفر لتغطية مؤتمر هام .. أحد الزملاء أتصل بى و أبلغنى أنه سأل عنى و كان يرغب فى رؤيتى فصممت على زيارته بعد أنتهاء المؤتمر .. و لكنه مات بعد عدة أيام .. لم يكن له أقارب هنا فتولت الجريدة كل شئ و دفن فى أحد مقابر الفقراء .. و لأن المصائب لا تأتى فرادى .. صودرت جريدتنا بعد أن نشرنا تحقيقاً فى قضية هامة رغم قرار النائب العام وقتها بحظر النشر فى تلك القضية .. و عندما عاودنا النشر .. كان الوقت قد فات لنشر نعياً له .. مرت سنة الآن منذ وفاته و ترقيت حتى أصبحت رئيس التحرير .. و جئنا بساعى جديد ليحل مكان عم فتحى .. هذه هى حكايته كلها .. كما ترون .. لا أستحق أن أكتب قصة عنها أو تحقيقاً و أنشرها

سكت قليلاً .. سألته بدهشة : و لماذا ظننت إذن أنه هو الطارق ؟

أرتشف قليلاً من كوب القهوة أمامه .. قال كمن يتذكر شيئاً :

نسيت أن أقول لكم .. بعد عدة أيام من وفاة عم فتحى وقعت بضع حوادث غريبة فى المجلة .. أناس تسمع صوت جلبة فى المطبخ رغم أن لا أحد هناك .. أيضاً الفراش الجديد الذى عمل هنا أخبرنا أنه يلاحظ أصوات قادمة من المكاتب عندما يأتى فى الصباح .. و كأن شخصاً ينظفها.. و عندما يتحقق من الأمر يجد المكاتب خالية .. و بواب العمارة يؤكد أنه يرى أحياناً الأنوار مضاءة لفترات متأخرة فى المساء حيث أعتاد عم فتحى السهر مع بعض المحررين الذين يمكثون لأنجاز أعمالهم المتاخرة رغم أنه لم يعد أحد يفعل ذلك الآن .. و بدأت أسمع صوت طرق على الباب فى نفس الأوقات المنتظمة التى كان يقدم عم فتحى فيها قهوتى المعتادة .. نفس طرقته المميزة على الباب .. كتلك التى سمعتموها .. و عندما أفتح الباب لا أجد أثر لأحد .. و بعض المحررين أيضاً حدث معهم نفس الشئ .. و بالذات القدامى منهم .. و أستمرت هذه الطرقات من يومها حتى الآن .. الغريب أن عم فتحى كان يحتفظ ببضع أعداد من المجلة فى درج خاص داخل المطبخ .. أعداد خاصة ممتلئة بالصور أكثر و منها العدد الأول للجريدة

.. و لكنها أختفت كلها رغم أن الفراش الجديد رآها هناك أول يوم أستلم فيه العمل هنا .. و لكنها أختفت بعدها .. كما أن بعض الصور المعلقة على الجدران تحطمت أطارتها .. فلم نعد نعلق أى صور على جدران المكان

توقف صديقى عن الكلام لبرهة .. خيم علينا الصمت .. نظر فى ساعته قائلاً بسرعة : يبدو أن الوقت تأخر .. سأدعوكما للغذاء بمناسبة الترقية ..

نهض فخرجنا من مكتبه دون كلام .. كنت فى حالة صدمة مما سمعت .. سرنا فى الردهة الخالية تماماً .. يبدو أن معظم المحررين فى أستراحة غذاء أو أنهوا عملهم بالفعل فالمكان شبه خالى .. أقتربنا من المطبخ .. تسمرت فى مكانى عندما تناهى إلى سمعى صوت قادم من داخله .. نظرت لصديقى و لكنه أكمل طريقه بشكل طبيعى فسرت معه .. مع أقترابنا أزداد الصوت وضوحاً .. صوت مياه تغلى و كأن شخصاً يعد مشروباً و معها صوت تقليب صفحات .. أشار صديقى إلى كرسى بجوار المطبخ تماماً :

- هنا أعتاد أن يجلس عم فتحى ينتظر أشارة أحد من الموظفين .. و هنا المخزن ..

ظل صديقى يتكلم و نحن نعبر أمام المطبخ .. لم أنتبه لأى من كلامه لأنى كنت مشغولاً بمعرفة ما يدور داخل المطبخ .. بمجرد أن أصبحنا أمامه حتى ألتفتت ببطء لألقى نظرة سريعة بداخله .. لم يكن هناك أحد .. المكان خاوى تماماً و الصوت توقف بمجردنا أن عبرنا أمامه .. أقشعر بدنى .. بمجرد أن تجاوزنا مدخل المطبخ حتى عاد الصوت مرة أخرى بوضوح .. سيطرت على نفسى بصعوبة .. سرت قشعريرة باردة فى جسدى رغماً عنى .. سرحت قليلاً قبل أن أنتبه على صوت صديقى مكملاً كلامه :

كلما تذكرت عم فتحى شعرت بالشفقة نحوه .. حاولت أن أكتب عنه عدة مرات و لكنى حتى الآن لم أجد أى شئ مميز فى حياته ..

ثم تنهد و هو يلوح بيديه بيأس قائلاً : ليتنى أجد أى شئ مثير فى قصة حياته لأكتب عنه على الفور